جامع الخلفاء ومئذنته
دراسة تاريخية عمارية فنية

الدكتور خالد خليل حمودي

المقدمة:

يعد جامع الخلفاء ببغداد من الجوامع المهمة وله مكانة رمزية وتاريخية ومعمارية لأنه يذكرنا بالعصر العباسي الذي ازدهرت فيه الحضارة العربية الإسلامية في مختلف الميادين لاسيما عمارة الجوامع الفخمة، ولكن عوامل عديدة أدت إلى اندثار معظم الأبنية العباسية أو البغدادية القديمة بحيث لم يبقى منها إلا القليل وهذا العدد القليل هو الأخر لم ينل الرعاية والعناية مما أدى إلى تعرضه إلى التصدع والتساقط وتهدم أجزاء منه وأصبح معرضا إلى خطر الانهيار والزوال لولا تدارك المخلصين له وسعيهم للمحافظة عليه وجهودهم الكبيرة في الحث على صيانته وترميمه.

وعلى أثر قيام الدولة العراقية بدأت دائرة الآثار بالاهتمام بالتراث ألعماري القديم ومن ذلك عمارات بغداد القديمة فأولت عناية بجامع الخلفاء منذ أوائل سنة ١٩٣٥ ووضعت أولا تقريرا مفصلا عن حالة الجامع موضحة تاريخه وأهميته وبيان التجاوز الحاصل على العقار الذي كان يشغله وضرورة إزالة جميع الأبنية المستحدثة الموجودة على أرضه والتي تسيء إلى حرمة ذلك الجامع وكونه مكانا للصلاة ، وتؤدي كذلك إلى زيادة تشويه وخراب الجامع وتأتي على ما بقي فيه من أبنية قديمة لاسيما المئذنة التي تعد من نوادر العمارة البغدادية في تصميمها وزخارفها وارتفاعها.

وهكذا بذلت جهود حثيثة للمحافظة على جامع الخلفاء عند فتح الشارع الرئيس العام المجاور له الذي أطلق عليه في حينه شارع الجمهورية بعد قيام ثورة ١٤تموز/١٩٥٨ وروعي إقامة جامع حديث بجوار المئذنة له قبة ضخمة يتميز بعمارة وزخارف عباسية منفذة بالآجر ليكون ذكرى لجامع

الخلفاء العباسي كما أطلق مؤخرا على الشارع المجاور له اسم شارع الخلفاء تخليدا للخلفاء العباسيين وأثارهم المجيدة في بغداد مدينة السلام.

وهذا البحث يتناول تاريخ جامع الخلفاء ومئذنته ودراسة لموضعه والتطورات التي حصلت عليه عبر العصور المختلفة حتى الوقت الحاضر. أما الدراسة المعمارية فقد اقتصرت على المئذنة القديمة فيه لأن بناية الجامع قد اندثرت وجرى تجديدها حديثا، لذلك يتناول البحث بالتفصيل تاريخ بناء المئذنة، والوصف المعماري لها، ودراسة عناصرها ألعمارية والفنية والمميزات المهمة التي تميزت بها هذه المئذنة في عمارتها وزخارفها مع ذكر أعمال الصيانة التي أجريت عليها، وقد تم تزويد البحث بالصور والرسوم الضرورية لتوضيح المعلومات الواردة فيه .وأما المصادر والمراجع التي اعتمد عليها فكانت متنوعة منها مصادر عربية قديمة ومراجع عربية وأجنبية مختلفة لاسيما تلك التي أشارت إلى هذا الجامع قبل إندثار بنايته وقامت بتوثيق المعلومات عنه بالصور أو بنقل الكتابات التي كانت موجودة على جدرانه .

جامع الخلفاء ومئذنته

التاريخ

كان القصر الحسني أحد قصور دار الخلافة العباسية في بغداد الشرقية منذ عهد هارون الرشيد حيث شيدت حوله قصور الخلفاء فيما بعد وجرى توسيعه وإضافة دور وأراض واسعة إليه وأحيط الجميع بسور[١]، وقام الخليفة المكتفي بالله (٢٥٩-٢٨٩/٩٠٨-٩٠٢م) بإنشاء جامع فيه أطلق عليه جامع القصر [٢]، ثم أصبح يسمى جامع الخليفة، وفي القرن الحادي عشر الهجري (القرن السابع عشر الميلادي) اشتهرت تسميته بجامع الخلفاء على أنه أصبح يسمى بين عامة الناس جامع سوق الغزل نسبة للسوق والمحلة (المنطقة أو الزقاق) الموجود فيها الجامع والمسماة بهذا الاسم.[٣]ولم نعثر على وصف لبناية هذا المسجد رغم أهميته ووجود الإشارات التاريخية عنه. وفي خلافة المقتدي بأمر الله أقيمت مئذنة في هذا الجامع وتم بناؤها في سنة ٤٧٩ه (١٠٨٦م) [٤]،وهذا أول ذكر لبناء مئذنة فيه. وفي خلافة المستنصر بالله شيد له مدخل جديد بواجهة جميلة وفتحت المزملة

التي عملت فيه وكان إنجاز هذا الأعمال في سنة ٦٣٥هجرية (١٢٣٨ميلادية)[٥]، وقد شاهد الرحالة نيبور(Niebuhr) ذلك المدخل عند زيارته لبغداد في النصف الثاني من القرن الثاني عشر الهجري (القرن الثامن عشر الميلادي)وذكر الكتابة الموجودة على واجهته وأشار إلى اندثار بناية هذا المسجد الجامع وأنه لم يبق منه سوى المئذنة وجزء من سوره الخارجي الذي فتح فيه المدخل، وقد ظن هذا الرحالة خطأ أن هذا المسجد الجامع هو من أبنية الخليفة المستنصر بالله معتمدا على ما ورد في الكتابة التي كانت تزين واجهة المدخل والتي نقل لنا نصها وهو:"أمر بعمله سيدنا ومولانا الأمام المستنصر بالله أمير المؤمنين أعلى الله معالم الإسلام بهمته العالية وأعلى دعائم الايمان بأيالته وذلك في سنة ثلاث وثلاثين وستماية "[٦].

وبعد احتلال المغول لبغداد بفترة قصيرة أمر عطاء ملك الجويني[٧] صاحب الديوان في عهد أباقا خان بن هولاكو بتجديد عمارة مئذنة جامع الخلفاء في سنة ٦٧٠هـ(١٢٧١م) فتم تجديدها في شهر شعبان من هذه السنة لكنها سقطت في شهر رمضان في نفس السنة [٨].ثم أعيد بناء نفس المئذنة مرة أخرى فتمت عمارتها في سنة ٦٧٨ه(١٢٧٩م) [٩] حيث لازالت قائمة إلى اليوم.

تعرض جامع الخلفاء إلى الخراب خلال هجوم المغول على بغداد واحتلالها في سنة ٦٥٦هـ(١٢٥٨ م) حيث ذكرت المصادر خبر احتراق معظم مباني المدينة ومن بينها احتراق هذا المسجد الجامع وما يجاوره[١٠]، وبعد هذه الواقعة عين الأمير قرابوغا شحنة بغداد، وعين علي شهاب الدين بن عبد الله صدرا للأوقاف فتقدم إليه بعمارة جامع الخليفة [١١].

ومما لاشك فيه أن هذا المسجد الجامع قد نال قسطا من العناية والاهتمام لكونه ثالث مسجد جامع في بغداد الشرقية بعد جامع الرصافة وجامع السلطان[١٢]، حيث ذكره الرحالة ابن بطوطة الذي زار بغداد في سنة ٧٢٧ هـ(١٣٢٧ م) وقال ان هذا المسجد متصل بقصور الخلفاء ودورهم وهو كبير فيه سقايات ومطاهر كثيرة للوضوء والغسل [١٣].

والجدير بالذكر أن تسمية هذا المسجد بأسم جامع الخلفاء ترجع الى سنة ١٠١٣هـ(١٦٠٤م) عندما ذكره بهذا الاسم الرحالة"بيتر تاكسيرا " ثم ذكر هذه التسمية من بعده الرحالة " أوليا جلبي " الذي زار بغداد في سنة

١٠٦٦هـ(١٦٥٥م)[١٤] . وذكره الرحالة نيبور عندما زار بغداد سنة ١١٨٠هـ(١٧٦٦م) وقال أنه يقع في محلة سوق الغزل التي كانت مزدهرة في ذلك الوقت وتباع فيها الغزول فاشتهرت بهذه التسمية لكنه ذكر انه لم يبقى من بنائه سوى المئذنة والجدار الخارجي الذي فتح فيه مدخل مزين بكتابة تذكارية تحمل اسم الخليفة المستنصر بالله [١٥].

في العصر العثماني قام والي بغداد سليمان باشا الكبير بهدم ما تبقى من سور هذا المسجد الجامع مع المدخل المذكور ثم أقيم في ذلك الموضع مسجد صغير تم بناؤه في زمن الوالي سليمان باشا الصغير سنة ١٢٢٤هـ(١٨٠٩م) وكان على مقربة من المئذنة لكنه غير متصل معها[١٦]. وفي الآونة الأخيرة تم فتح شارع عام بمحاذاته في سنة ١٩٥٨م فاقتضت الضرورة هدم بناية ذلك المسجد الصغير وتم بناء مسجد جامع فخم حديث روعي فيه أن تكون المئذنة القديمة في وسط صحنه ، وأطلق اسم شارع الخلفاء على ذلك الشارع العام المار بجوار هذا المسجد الجامع الذي بقي يحمل اسم جامع الخلفاء[١٧].

المئذنة :

سبقت الإشارة إلى أن أول ذكر للمئذنة في جامع الخلفاء كان سنة٤٧٩هـ(١٠٨٦)[١٨] ، ويبدو أن هذه المئذنة استمرت قائمة فترة طويلة من الزمن إذ لم يرد في المصادر ذكر عن تجديدها أو ترميمها حتى احتلال المغول لبغداد عندما ورد خبر احتراق جامع الخلفاء على أثر هجوم للجيش المغولي[١٩]،وربما أصاب الحريق والخراب بناية المسجد والمئذنة معا، مما أدى إلى تجديد البناء بعد ذلك [٢٠] ، على أن المئذنة بقيت دون تجديد يذكر حتى سنة ٦٧٠هـ(١٢٧١م) عندما أمر علاء الدين عطا ملك الجويني صاحب الديوان بتجديدها فتم بناؤها على ما يبدو بسرعة في شهر شعبان من هذه السنة لكنها سقطت بعد حوالي شهر تقريبا أي في شهر رمضان من نفس تلك السنة [٢١]، ولعل سبب سقوطها بهذه السرعة يرجع إلى عوامل عديدة من أبرزها سرعة البناء وعدم أتقان العمل وعدم دراسة طبيعة الأرض التي أقيمت عليها وقلة خبرة القائمين على العمل بما يرجح الاحتمال بأنهم لم يكونوا من الماهرين. ثم جرت محاولات أخرى لأعادة بناء هذه المئذنة بعد سنوات قلائل وفي هذه المرة تم تدارك الأخطاء السابقة فأتقن

العمل وأحكم البناء وتمت عمارة هذه المئذنة في سنة ٦٧٨هـ(١٢٧٩م) [٢٢] ، فجاء بنائها أية في العمارة والزخرفة حيث ما تزال محتفظة برونقها حتى الآن.

نالت مئذنة جامع الخلفاء اهتمام الرحالة الذين زاروا بغداد في فترات مختلفة فأشاروا اليها وأعجبوا بها وجلب انتباههم لها رسوخ بنيانها وارتفاعها وجمال مظهرها .فقد ذكرها الرحالة التركي أوليا جلبي الذي زار بغداد في سنة ١٠٦٦هـ(١٦٥٥م) [٢٣] ، وأشار إليها الرحالة نيبور الذي قدم إلى بغداد سنة ١١٨٠هـ(١٧٦٦م) [٢٤] ،وتكلم عنها بإيجاز الرحالة جيمس بكغهام الذي دون رحلته إلى العراق سنة (١٨١٦م) [٢٥].

يبدو أن التلف قد بدأ يصيب هذه المئذنة نتيجة إهمالها وعدم صيانتها طيلة قرون عديدة لاسيما بعد خراب بناية المسجد الجامع واندثارها ، وعندما قام الوالي العثماني على بغداد ببناء مسجد جديد على أنقاض المسجد السابق أحياء له في سنة ١٢٢٤هـ(١٨٠٩م)جعل بناية ذلك المسجد بعيدة عن المئذنة التي نحن بصددها ربما بسبب الخوف من سقوطها بعد حدوث بعض التصدع في قشرتها الخارجية وتساقط أجزاء منها وتهدم بعض الأجزاء الخارجية لقاعدة المئذنة حيث شاهد ذلك الرحالة بكنغهام أثناء وجوده في بغداد سنة (١٨١٦م) [٢٦] .وهكذا فأن حالة هذه المئذنة أخذت تسوء تدريجيا ويتداعى البناء وكسوته الزخرفية مما حمل الحاكم البريطاني في بغداد سنة (١٩١٧م)على محاولة هدمها خوفا من سقوطها الوشيك حسب ظنه ،ولكن هذه المحاولات لاقت معارضة شديدة واستنكار سكان بغداد مما جعله يعدل عن فكرته ويكتفي بإصلاح قاعدة المئذنة ثم قامت بعد ذلك بلدية بغداد بتقوية تلك القاعدة [٢٧] .

ولم تنل هذه المئذنة الرعاية المنشودة حتى تسلمتها (دائرة الآثار) وعنيت بصيانتها وترميمها في مواسم عمل متفرقة بدأت منذ سنة ١٩٣٧م، وكانت أهمها الأعمال التي أجريت في أواخر الخمسينات انتهت في سنة ١٩٦٠م والتي بذلت فيها جهود كبيرة من أجل أعادة المئذنة إلى حالتها الأصلية ، حيث تم تجديد بناء القاعدة المضلعة مع زخارفها وجعل لها شرفة مضلعة مرتكزة على مقرنصات مجددة من اجتهاد المهندس المشرف على أعمال الصيانة [٢٨]، وشمل العمل تقوية البناء كله وصيانة الأجزاء المتساقطة من

الكسوة الزخرفية للبدن وترميم ما تهدم من مقرنصات الشرفة العليا للمئذنة الموجودة في أعلى البدن .وما تزال دائرة الآثار تتدارك ما يستجد في هذه المئذنة من أمور تستوجب الاهتمام ومن إصلاحات متواصلة حتى الوقت الحاضر.

الوصف العمراني لجامع الخلفاء ومئذنته:

ذكرنا عند الكلام عن تاريخ جامع الخلفاء أن معالمه الأصلية قد أندثرت منذ أوائل القرن الثالث عشر الهجري (القرن التاسع عشر الميلادي)حيث هدمت الأجزاء المتبقية منه وبني في موضعه مسجد صغير ،ولم يبق من ذكرى ذلك الجامع المهم سوى مئذنته ،وفي الآونة الأخيرة أقيم مسجد جامع فخم البناء تخليدا لذكراه روعي في بنائه أن يحتضن تلك المئذنة الخالدة .

ورغم ما كان يتمتع به جامع الخلفاء من مكانة مرموقة في العصر العباسي بأعتباره ثالث مسجد جامع في الجانب الشرقي من بغداد، ألا أننا لم نقف على وصف له باستثناء إشارات قليلة متناثرة لا تغني شيئا .فذكره الرحالة ابن بطوطة عندما زار بغداد في سنة ٧٢٧هـ(١٣٢٧م) وقال عنه انه متصل بقصور الخلفاء ودورهم وهو كبير فيه سقايات ومطاهر للوضوء والغسل [٢٩] . وقال عنه الرحالة نيبور الذي زار بغداد في سنة١١٨٠خـ(١٧٦٦م) أنه لم يبق من بنائه سوى المئذنة والجدار الخارجي الذي فتح فيه مدخل فخم مزين بكتابة من عهد الخليفة المستنصر بالله[٣٠] . ومن المعروف أن الخليفة العباسي المستنصر بالله قد شيد هذا المدخل وقام بإصلاحات أخرى في هذا المسجد الجامع وذلك في سنة ٦٣٥هـ(١٢٣٨م) [٣١]لكن هذا المدخل وما بقي من معالم هذا السجد الجامع قد أزيلت وهدمت عندما قام الوالي العثماني على بغداد سليمان باشا الصغير في سنة ١٢٢٤هـ(١٨٠٩م)ببناء مسجد صغير على مقربة من المئذنة التي بقيت من جامع الخلفاء المذكور [٣٢].

إن مئذنة جامع الخلفاء القائمة إلى اليوم قد شيدت منذ سنة ٦٧٨هـ (١٢٩٧م)[٣٣]ولا يزال بناؤها الفخم محتفظا بمعظم عناصره الأصلية إلى الآن.

شيدت هذه المئذنة جميعها بالآجر (الطوب) وأستعمل الجص كمادة للربط بين قطع الآجر ،لكن الأجزاء السفلى من المئذنة التي تمثل الأساس والجزء المغمور تحت سطح الأرض قد أستعمل فيها مادة للربط مقاومة

للرطوبة وهي خليط من مادة الجير أو الكلس (ألنورة) مع الرماد [٣٤] وثبت علميا نجاح هذا الخليط في مقاومة الرطوبة والمياه الجوفية وجعل الآجر يكتسب قوة ومتانة وتماسكا .

ومن المعروف أن هذه المواد البنائية متوفرة في منطقة بغداد، وهي ذات خصائص ومميزات جعلتها مفضلة على غيرها من أبرزها سهولة الحصول على الآجر وبنوعية جيدة ومقاومتها للتغيرات والاختلافات في الحالة الجوية من حرارة وبرودة وأمطار، كما أنها أثبتت وبرهنت على قوتها ومناعتها مما جعلها تستخدم بكثرة في العراق طيلة العصور الماضية هذا بالإضافة إلى أن مادة الآجر من المواد الصالحة والسهلة لبناء المآذن ذات الشكل الأسطواني والارتفاع العالي نظرا لوزنها الخفيف نسبيا وسهولة تقطيعها أو تحوير شكلها وفق الشكل المطلوب ،والى جانب ذلك سهولة صنع الزخارف المتنوعة منها أو حفر الزخارف المختلفة عليها .

كانت مئذنة جامع الخلفاء والى وقت قريب تعد أعلى بناء قائم ببغداد ولذلك صارت الأمثال تضرب بارتفاعها الشاهق ،وهي تعد أعلى مئذنة قديمة ببغداد ويصل ارتفاعها إلى حوالي (٣٥ متر) [٣٥] .

تتألف مئذنة جامع الخلفاء من قاعدة مضلعة مرتفعة تمتد تحت مستوى سطح الارض ويبلغ محيطها (٢٠،٦٤ مترا) وهي تتكون من أثني عشر ضلع متساوية جميعها وعرض كل واحدة منها (١،٧٢متر) .وأما ارتفاع هذه القاعدة فلا يمكن تحديده بدقة نظرا لاختفاء جزء منها تحت سطح الأرض التي تم رفع مستواها على الأغلب خلال أعمال الإصلاحات والصيانة التي تعرضت لها المئذنة لفترات متعددة ،ولذا اضطرت دائرة الآثار خلال فترة صيانتها المتأخرة إلى عمل ما يشبه خندق حول القاعدة لإظهار الزخارف البديعة الموجودة عليها والواقعة في أعلاها وبعرض (٢٢ر ١ متر) من جميع الجهات .وفوق ذلك تقوم طبقات من مقرنصات مجددة تحمل شرفة الآذان السفلى وهي مضلعة الشكل كذلك على غرار أضلاع القاعدة وأما ارتفاعها عن سطح الأرض الحالية فهو(٥٠ر٧ متر) ولها سور أو جدار صغير يترك بينه وبين بدن المئذنة فراغا أو ممرا لوقوف المؤذن مقداره (٩٦ سنتمترا) وارتفاع هذا السور (٢٥ ر١ متر) وقد زين من الخارج بزخارف هندسية. وفوق هذه الشرفة يقوم بدن المئذنة وهو

أسطواني الشكل محيطه يبلغ (٢٠ ر١٦ متر) وارتفاعه حتى قمة المئذنة (٧٠ ر٢٦ متر) ويزين هذا البدن زخارف تبـدأ بأسفله من ارتفاع (٥٠ ر٢ متر) ثم تنتهي في أعلى البدن بشريط من كتابة زخرفية بخط كوفي تدور حول البدن ،ثم تأتي في أعلاها مقرنصات مزخرفة تتكون من ست طبقات متعاقبة تحمل شرفة الأذان العليا ،وهي شرفة أسطوانية الشكل لها سور أو جدار صغير قليل الارتفاع غير مزخرف ويتم الوصول أليه بواسطة سلمين يخترقان البدن المجوف للمئذنة بشكل لولبي وكل منهما يختلف مساره عن الآخر ولا يلتقيان و لهما مدخل في الشرفة السفلى وفتحة في الشرفة العليا ويتوج كل منهما فتحة عقد مدبب صغير ارتفاعه (١,٧٠ متر) . وفوق هذه الشرفة العليا يقوم عنق المئذنة وهو أسطواني الشكل أيضا وقطره أقل من قطر البدن بكثير لإيجاد مساحة كافية لوقوف المؤذن. ثم تنتهي المئذنة في أعلاها برأس على شكل قبة صغيرة مدببة مزينة بزخرفة بسيطة تقوم على التفنن في بناء قطع الآجر المربعة من حيث البروز مكونة أشكالاً هندسية متدرجة .

الأصول التخطيطية والمعمارية للمئذنة:

تعد المئذنة عنصراً هاماً وأصيلا في العمارة الدينية الإسلامية بل لعلها سمة فريدة من سمات هذه العمارة وفنا من أجمل فنونها .والمئذنة في الأصل موضع للأذان ومكان المؤذن الذي يدعو الناس إلى الصلاة .و للمئذنـة أسماء متعددة : منها منارة ، صومعة كما وتعرف احيانا بأسم (عساس) في بلاد المغرب وشمال أفريقيا ، وهذه الأسماء جميعها تطلق على نوع من الأبنية تؤدي غرض واحد و وظيفة واحدة هي إعلام الناس بحلول وقت الصلاة بواسطة الأذان الذي يطلقه المؤذن [٣٦] . وقد اقتضت الضرورة اتخاذ مكان مرتفع لإبلاغ صوت المؤذن إلى أسماع أكبر عدد من الناس ، كما كان يفعل بلال (رض) في عهد النبي (صلى الله عليه وسلم). ومن الثابت أن فكرة المئذنة هي فكرة أصيلة في الإسلام وأن بلالاً كان يؤذن على عهد الرسول (صلى الله عليه وسلم) على منارة في دار حفصة بنت عمر التي تلي

المسجد النبوي بالمدينة، وأنه كان في دار عبد الله بن عمر أسطوان في قبلة المسجد يؤذن عليها وكانت مربعة الشكل(٣٧)

وقد أعترف العالم الفرنسي "سوفاجية " أن هذه المئذنة الأولى في هذا المسجد هي التي اتخذت أنموذجا في جميع المساجد من بعد (٣٨) . ولاشك في أن ضرورة ارتفاع مكان المؤذن وعلوه عن البناء قد أدى إلى ظهور فكرة أقامة بناء عال متصل ببناء المسجد أو ملاصق له ليحقق الغاية ، وبمرور الزمن اقتضى الأمر بناء مئذنة في كل مسجد تبرز عن بنائه (٣٩).

لم تكن المئذنة في فجر الإسلام عنصراً رئيسياً في تخطيط المسجد الجامع وبنائه(٤٠)، ونظراً لكونها ليست ضرورية جداً في بادئ الأمر لأن المسلمين كانوا في حالة استنفار وجهاد ومجتمعين على الدوام تقريباً لمواصلة الجهاد والفتوحات ، لذلك تأخر بناء المآذن في المساجد الجامعة بعض الشيء(٤١) ،حيث كان يغني عنها الآذان على سطح المسجد أو أي مكان مرتفع في المسجد .

أما أشكال المآذن وأصلها فهي أمور تضاربت حولها الآراء ، فقال بعض الباحثين أنها مشتقة من الأبراج السورية القديمة المربعة الشكل ، ولكن هذا الرأي أصبح غير مقنع بعدما ذكر السمهودي (٤٢) عن وجود منارة بالمسجد النبوي تعد الأولى من نوعها في الإسلام وفي هذا المسجد الجامع بالذات الذي أتخذ بنيانه نموذجاً وقدوة يحتذى به عند أقامة المساجد في العالم الإسلامي(٤٣).وهكذا يتضح لنا بأن المآذن هي من ابتكار المسلمين فحسب ولم تكن هناك حاجة لاقتباسها من الأبنية والمعابد القديمة(٤٤).

لم تكن هناك قاعدة ثابتة تحدد موقع المئذنة أو عددها في المسجد ، فهي أما أن تكون واحدة في مؤخرة المسجد أو في أحد أركان البناية أو تكون في كل ركن من الأركان الأربعة للمسجد (٤٥) . وكذلك الحال بالنسبة لشكل المآذن ومواد البناء المستعملة فيها ، فأنها لم تكن ذات قاعدة ثابتة أيضاً، فالمواد الإنشائية المستخدمة في بناء المآذن تختلف باختلاف الأقاليم والبلدان تبعا لتوفر المادة هناك وسهولة الحصول عليها وشيوع استعمالها وثبوت صلاحيتها في البناء ، فمثلاً أستعمل الآجر (الطوب) في العراق وإيران،

وأستعمل الحجر في بلاد الشام وأسيا الصغرى ومصر وبلاد المغرب .ومع ذلك نجد أحياناً استعمال هاتين المادتين في القطر الواحد والبلد الواحد .

تتكون المآذن بصورة عامة من قاعدة جزء منها مغمور داخل الأرض، ويقوم فوقها بدن المئذنة ويكون عادةً مجوف وبداخله سلم وفي أحيان قليلة يكون السلم ظاهرا من الخارج، وينتهي السلم المذكور بأعلى البدن حيث توجد شرفة الآذان (٤٦)، وفوق الشرفة يقوم عنق المئذنة وهو في بنائه أصغر من البدن وأقل حجماً وطولاً منه ، ثم تنتهي المئذنة في أعلاها بقمة أو رأس على شكل قبة صغيرة.

أما طراز المآذن فيختلف بين مدينة وأخرى وبين أقليم وآخر ، بل حتى بين عصر وأخر . على أنه استعلمت المآذن الأسطوانية الشكل في العراق والشرق الإسلامي بينما كان طراز المآذن ألمربعة الشكل قد شاع في بلاد الشام و مصر و المغرب والأندلس ، وقد جمعت بعض المآذن أحياناً بين كلا الطرازين فقسمها الأسفل تراه مربعاً وفي أعلاه جزء أسطواني الشكل (٤٧) وهكذا لم يكن لطراز المئذنة قاعدة ثابتة لذلك نجد في بعض الأقطار الإسلامية أكثر من طراز واحد من المآذن.

في العراق ولاسيما في بغداد ساعدت عوامل الطبيعة على أقامة مآذن رشيقة أسطوانية الشكل متناسقة الأجزاء لا تتسم بالضخامة المفرطة في بنائها ولا بالارتفاع الشاهق في طولها ، وخير مثال عن المآذن البغدادية القائمة إلى اليوم وأقدمها تاريخاً هي مئذنة مسجد الحظائر (المعروف حالياً جامع الخفافين) الذي شيدته في سنة (٥٨٠هـ /١١٨٤ م) السيدة زمرد خاتون والدة الخليفة الناصر لدين الله المتوفاة سنة (٥٩٩هـ/١٢١٢م) (٤٨) وفي عصور متأخرة جدد المسجد المذكور لكن المئذنة بقيت محتفظة ببنائها وشكلها وعناصرها الأصلية العباسية ، حيث تتكون من قاعدة مثمنة الشكل يقوم فوقها بدن أسطواني مجوف البناء بداخله سلم ينتهي بشرفة الآذان وهي أسطوانية الشكل كذلك ترتكز على مقرنصات من عدة طبقات ويقوم فوق الشرفة رقبة أو عنق المئذنة وهو أسطواني الشكل مجوف أيضاً لكنه أصغر حجماً من البدن من حيث طوله وقطره ، وأخيراً تنتهي المئذنة في أعلاها بقمة أو رأس يشبه قبة صغيرة مدببة الشكل . ولعل أهم مميزات هذه المئذنة أنها متناسقة الأجزاء من حيث طولها وارتفاعها مع عرض أو أتساع قطرها

ومن حيث النسب بين القاعدة والبدن والعنق . وهكذا أصبحت هذه المئذنة قدوة للمآذن البغدادية من حيث طراز بنائها وشكلها وانسب المتبعة بين أجزائها حتى العصر الحديث.

إذا أجرينا مقارنة بين بين مئذنة جامع الخلفاء ومئذنة جامع الحظائر السالفة الذكر سنجد بعض الاختلاف بينهما إذ تبدو مئذنة جامع الخلفاء أكثر ضخامة في البناء وأكثر فخامة في الشكل العام وهذا راجع بدون شك إلى أهمية جامع الخلفاء، فنجد لأول وهلة أن مئذنة جامع الخلفاء كبيرة شاهقة الارتفاع وفيها شرفتان للآذان تقوم كل منهما فوق مقرنصات من طبقات كثيرة متعددة معقدة التكوين، والشرفتان مرتبطتان مع بعضهما بسلمين حلوزنيين يخترقان البدن، ويظهر عنق المئذنة صغير الحجم نسبياً، ومن حيث المظهر العام فقد كسي البناء بحلية زخرفية والكتابة الزخرفية والمقرنصات البديعة المزخرفة كذلك. وهذا كله لا نجده في مئذنة مسجد الحظائر التي غلبت عليها البساطة والهدوء والوقار .

أن طراز المآذن الضخمة الشاهقة الارتفاع قد أنتشر بكثرة في أقاليم الشرق الإسلامي ،ولعل ذلك كان دافعاً لقول "الجنرال دي بليه" بأن طراز جامع الخلفاء يعود إلى أصول إيرانية (٤٩) ، على أنه من الممكن القول بأنه مئذنة جامع الخلفاء بنيت على طراز المآذن السائدة في عصر التسلط السلجوقي (٥٠) والتي لازال بعضها قائماً إلى اليوم والتي تمتاز بنفس الصفات حيث استخدمت مادة الآجر في البناء وأكتسبت طابع الضخامة والارتفاع الشاهق والشكل الأسطواني ووجود شرفة الآذان قريباً من نهايتها العليا ثم كسوة البدن بحقول زخرفية من الآجر ذات عناصر مختلفة، ومن أمثلة المآذن السلجوقية في إيران التي تتميز بتلك السمات مئذنة بسطام المؤرخة في سنة ٥١٤هـ(١١٢٠م) (٥١) ، ورغم وجود التشابه بين هذه المئذنة ومئذنة جامع الخلفاء من حيث الطراز العام إلا أنهما غير متشابهتين من حيث التفاصيل والأشكال الزخرفية . وقد بنيت في العراق مآذن على غرار مئذنة جامع الخلفاء مثل مئذنة سنجار (٥٥٩هـ/١١٧٤ م) ومئذنة اربيل وداقوق (٥٨٠ -٦٣٠ هـ/١١٩٨-١٢٣٣ م) فضلاً عن بناء مآذن أخرى في تاريخ لاحق لتاريخها ما يزال بعضها قائماً ومنها مئذنة الكفل (٥٢) (بين مدينة الحلة والكوفة) ويرجع تاريخها الى عهد السلطان المغولي

الأيلخاني "أولجايتو خدابنده" المتوفي سنة ٧١٦هـ(١٣١٦م)وهو ماورد في المصادر التاريخية [٥٣] وأيدته الكتابة التذكارية الموجودة على هذه المئذنة [٥٤] ، ونلاحظ في هذه المئذنة وجود الكثير من أوجه التشابه بين طرازها وطراز مئذنة جامع الخلفاء . ومن المؤكد أن عمارة مثل هذا النوع من المآذن كان معروفاً في العراق وأن المعمار البغدادي والعراقي قد أتقن بنائها.

أما بالنسبة لظاهرة استخدام سلمين أثنين يخترقان بدن مئذنة جامع الخلفاء من الداخل ، فذلك لم يكن جديداً إذ هو نظام متبع في مئذنة المسجد الجامع بقرطبة في الأندلس والتي شيدت في سنة ٣٤٠هـ (٩٥٠م) من قبل عبد الرحمن الناصر [٥٥] ، وبعد هذا التاريخ وصلنا مثالين عن هذه الظاهرة من العراق هما مئذنة الجامع الكبير بالموصل المشهورة بالحدباء [٥٦] والقائمة إلى الآن ويعود البناء إلى عهد نور الدين محمود بن عماد الدين زنكي (٥٦٩-٥١١هـ/١١١٧ -١١٧٣ م) [٥٧] . والمثال الآخر هو المئذنة ألمظفرية في أربيل ويرجع تاريخها الى عهد مظفر الدين كوكبري (٥٨٦-٦٣٠هـ/١١٩٠-١٢٣٣م) [٥٨] .وفي الواقع أن و جود سلمين أثنين داخل بدن المئذنة له مبررات عديدة من أهمها تخفيف ثقل البدن وبالتالي تقليل الضغط والثقل على القاعدة التي يجب أن تكون راسخة في الأرض وقوية البناء لكي لا تتعرض لخطر التصدع أو الميلان مما يعرض المئذنة للسقوط. وكذلك من الناحية الاقتصادية فأن جعل كتلة البدن مجوفة يترتب عليه توفير في مواد البناء وقلة التكاليف . فضلاً عن الناحية الفنية والجمالية في إخفاء السلمين داخل البدن مما يسمح بتزيين البدن بالزخارف والكتابات القرآنية والتذكارية وهكذا كان استعمال السلمين داخل بدن المئذنة خير ما يحقق قوة وسلامة البناء ودوامه لفترة طويلة ثم توفير بالمواد الإنشائية وتقليل في كلفة البناء وزيادة في جمالية المئذنة عند زخرفة بدنها .

وهكذا نجد أن مئذنة جامع الخلفاء قد أخذت تصميماً مميزاً في تخطيطها وعمارتها ومظهرها وحليتها الزخرفية ، وهذا يتناسب مع المسجد الجامع المهم الذي أقيمت فيه. وفي الغالب أن طراز هذه المئذنة قد انتشر في العصر العباسي الأخير في العراق لاسيما في المساجد الجامعة المهمة والرئيسية حيث توجد أمثلة سابقة من مآذن مشابهة لها وأن كانت غير

متكاملة تعود إلى تاريخ سابق لها بحوالي قرن تقريباً كما في مئذنة سنجار (٥٥٩هـ/١١٧٤م)ومئذنة أربيل ومئذنة داقوق(٦٣٠-٥٨٠هـ/ ١١٩٨-١٢٣٣ م) .

الزخارف

تمتاز مئذنة جامع الخلفاء بوفرة زخارفها وتنوعها ، وهذه الحلية الزخرفية تزين قاعدتها وشرفة الآذان وقمتها أو رأسها وهي تختلف بين موضع وآخر من حيث العناصر والأشكال و أسلوب إنجازها. وقد استعملت مادة الآجر (الطابوق) في البناء وفي الزخرفة في هذه المئذنة . وكانت أبسط الأشكال الزخرفية تلك التي تقوم على استعمال قطع الآجر المستطيلة بصورة عمودية في البناء خلافاً لما هو مستخدم ومعروف في البناء وهو الصفوف الأفقية ذات التنظيم والنسق القائم على وضع قطعة مستطيلة فوق قطعتين مستطيلتين بأسفلها وهي طريقة معرفة عند البناءين العراقيين حالياً بأسم (الحل والشد). ويلاحظ أن استعمال صفوف القطع العمودية كان بشكل شريط يفصل بين كل جزء وآخر من أجزاء المئذنة ولعله قصد به زيادة متانة البناء وتقويته الى جانب الوظيفة الزخرفية .

ومن الطرق الزخرفية المستخدمة في هذه المئذنة الطريقة التي تقوم على تقطيع الآجر بأشكال هندسية تؤلف مع بعضها نجوما سداسية بحيث يتكرر الشكل بصورة لانهائية ،وهذا ما موجود في الشريط الزخرفي أسفل بدن المئذنة وأعلاه، وكذلك في قاعدة المئذنة.

أما الزخارف الحصيرية التي تكسو البدن فأنها تتألف من قطع صغيرة من آجر مربعة الشكل بارزة قليلاً مصفوفة بين قطع الآجر المستطيلة الشكل ومرتبة وفق نظام بحيث تتكون منها أشكالاً متدرجة الحافة تشبه مربعاً كل ضلع فيه يمتد إلى الخارج بشكل مروحي . أما الزخرفة الحصيرية الموجودة في رأس المئذنة فهي بسيطة وتتكون من تعاقب قطع صغيرة مربعة من الآجر مع قطع أخرى بارزة بنفس الحجم والشكل.

وبالنسبة إلى المقرنصات ذات الكتل البارزة والغائرة والأقواس والحنايا فأن الآجر المستخدم فيها يتم تقطيعه ونحته بموجب الأشكال المطلوبة وحسب ماتقتضيه الضرورة أو الشكل المقرنص أو الأجزاء التي يتكون منها .

ومن الطرق الزخرفية المهمة المستخدمة في هذه المئذنة طريقة حفر العناصر الزخرفية على سطح القطعة الآجرية لاسيما بالنسبة للأشكال النباتية بحيث تكون بارزة وأرضيتها غائرة ، وهذا ما أستخدم في باطن

الأشكال والمضلعات الهندسية في قاعدة المئذنة أو بواطن المقرنصات أو في الأشرطة أو الإطارات الفاصلة أو المحيطة بالزخارف الأخرى.

أما أنواع الزخارف في مئذنة جامع الخلفاء فيمكن تقسيمها بصورة عامة إلى أربعة أقسام هي :الزخارف الهندسية، الزخارف النباتية، المقرنصات، الكتابات.

فالزخارف الهندسية نجدها في قاعدة المئذنة المضلعة وفي البدن حيث تظهر في أسفل قاعدة المئذنة بشكل زخارف حصيرية تتكون من قطع منتظمة من الآجر الخالي من الزخارف في بواطنه وذات أشكال هندسية تؤلف فيما بينها نجوماً متعددة الرؤوس ومعينات منتظمة وأشكالاً صغيرة غير منتظمة تحيط برؤوس وزوايا تلك النجوم والمعينات ، وأبرز ما ميزت به هذه النجوم والمعينات والقطع الملحقة بها هو حفر العناصر النباتية في بواطنها . ويوجد بأسفل بدن المئذنة وبأعلاها شريط زخرفي قوامه قطع من الآجر الهندسية الشكل خالية من الزخارف يتكون منهما شريطان متداخلان مع بعضهما يؤلفان نجوماً سداسية بواطنها مزينة بعناصر نباتية هذا إلى جانب تلك الزخارف الحصيرية الموجودة على البدن وعلى رأس المئذنة والتي يمكننا اعتبارها نوعاً من الزخارف الهندسية والتي أبدع المعمار في تشكيلها .

والزخارف النباتية في هذه المئذنة محصورة داخل الأشكال الهندسية أو بواطن المقرنصات ، والعنصر الرئيسي فيها هو المروحة النخيلية (palmete البالمت) المتعددة الفصوص وأنصاف هذا العنصر الذي يتخذ شكل جناح الطائر فأطلق عليه بعض الباحثين الورقة الجناحية ، ولعل أبرز ما يميز هذه الزخارف أنها استخدمت بحجمين متفاوتين فنجد مثلاً أغصان وفروع مورقة تقوم فوق مهاد من فروع دقيقة ومتشابكة بحيث تؤلف هذه الزخارف على العموم نوعاً بديعاً من الزخارف النباتية التي شاع استخدامها في الفنون الإسلامية وعرفت بزخرفة التوريق العربي أو الزخرفة العربية وسماها الأوربيون (أرابسك) أي الزخرفة العربية . أما بالنسبة إلى الإطارات والأشرطة الزخرفية فهي تتكون من غصنين مورقين متشابكين ومتداخلين مع بعضهما بصورة منتظمة بحيث تؤلف شكلاً بيضوياً يتعاقب مع شكل معين وبصورة متكررة . وقد استخدمت الأشكال النباتية داخل

المقرنصات كذلك حيث بقيت أجزاء منها في المقرنصات أسفل الشرفة العليا.

أما المقرنصات في مئذنة جامع الخلفاء فأنها وصلت إلى درجة كبيرة من النضوج والإبداع الفني مما جعلها تبعث على الإعجاب لجمال شكلها وحسن تركيبها ومهارة عملها .ففي أسفل الشرفة العليا للمئذنة نجد المقرنصات الأصلية القديمة التي تؤدي وظيفة معمارية في حمل شرفة الآذان مع وظيفة زخرفية ، فهي تتكون من ست طبقات تبدأ من الأسفل بصف من أقواس مدببة الشكل متعاقبة مع أقواس مثلثة الشكل تقريباً تقوم فوق كتل بنائية بارزة تتعاقب مع حنايا أو تجاويف بحيث يكون كل منهما مزدان بما يشبه الأقواس المدببة ،وفوق ذلك تأتي طبقة ثالثة تتكون من صف من كتل بارزة متعاقبة مع كتل غائرة تعتبر استمراراً لما شاهدناه في الطبقة الثانية ،على أن الاختلاف بينهما هو أن التجاويف التي تكون استمراراً لما تحتها في الطبقة الثانية نجدها هنا كلاً منها مقسمة إلى أضلاع تنتهي كل بقوس مدبب مثلث الشكل تقريبا مكونة في أعلاها وفوق رؤوسها مضلعاً هندسياً يشبه نجمة ذات خمس رؤوس ثم تقوم فوق ذلك طبقة رابعة تتكون من تجاويف أو حنايا كل منهما مقسمة إلى أربعة أضلاع وكل ضلع منهما ينتهي بقوس مدبب مكونة فوقها مضلعاً هندسياً يشبه نجمة ذات أربع رؤوس ، وتتعاقب هذه التجاويف العميقة مع حنية مضلعة تنتهي برأس على شكل قوس مدبب ، وفوق ذلك تأتي طبقة خامسة فوقها تجاويف مضلعة متوجة بأقواس مدببة مع كتل بارزة ذات أقواس مدببة ، ثم تنتهي المقرنصات بالطبقة السادسة والأخيرة وهي تتكون من تجاويف مضلعة تعتبر استمراراً للتجاويف المذكورة في الطبقة الخامسة وهي تؤلف في أعلاها وفوق أضلاعها نصف نجمة مثمنة الرؤوس حيث تظهر أربعة أضلاع منها فقط ، وهذه التجاويف تتعاقب مع كتل بارزة من حنية صغيرة ذات قوس مدبب تتألف من ضلعين متجاورين.

أن المظهر العام لهذه المقرنصات يبدو لأول وهلة للناظر وكأنها تتألف من صفين أو قسمين رئيسين :القسم الأول يشمل على الطبقتين الثانية والثالثة من المقرنصات ، والقسم الثاني يشمل الطبقتين الخامسة والسادسة ، بينما ظهرت مقرنصات الطبقة الرابعة كأنها حداً فاصلاً بين القسمين

المذكورين ، والجدير بالذكر أن الكتل البارزة من المقرنصات في القسم الثاني أقيمت فوق حنايا وتجاويف القسم الأول ، بينما جعلت الحنايا والتجاويف في القسم الثاني فوق الكتل البارزة الموجودة في القسم الأول .

وهكذا تميزت هذه المقرنصات بتعدد طبقاتها واستعمال الأقواس المتعددة بكثرة فيها، وكذلك تميزت بوجود تجاويف وحنايا عميقة متعددة الأضلاع، ثم بروز الكتل المؤلفة منها إلى الخارج مما نتج عنه ظهور قاعدة ذات شكل هندسي واضح أسفل تلك الكتل البارزة التي تتكون منها المقرنصات، ولاشك في أن هذه الطريقة تؤدي إلى الإبتعاد عن الجدار الأصلي نحو الخارج ، مما يجعل المقرنصات تؤدي وظيفة معمارية هي أيجاد مساحة كافية لوقوف المؤذن وبناء شرفة الآذان فوقها، هذا بالإضافة إلى مما أسبغ على هذه المقرنصات من وظيفة زخرفية أيضاً تتضح في إبداع التركيب والتنسيق وترتيب الطبقات وتنظيمها وتدرجها فظهرت بهذه الصورة الفنية المتقنة، ولاشك في أن ذلك يدل على خبرة فنية سابقة بهذا العمل وتجربة عريقة أكتسبها المعمار البغدادي من أصول وجذور عباسية أقدم عهداً.

أما الكتابات الموجودة على مئذنة جامع الخلفاء فنراها في مكان محدد وهو أعلى البدن تحت المقرنصات ومحصورة داخل شريط يدور حولا لبدن عرضه زهاء (٩٠ سنتمتراً) يحده من الأعلى ومن الأسفل إطار زخرفي بعرض(٧سنتمتر) مزين بزخرفة تشبه السلسلة ، ثم يحيط بذلك إطار آخر من الأعلى والأسفل كذلك يشبه شكله الحبل يتكون من قطع آجرية مزخرفة تتعاقب مع أخرى غير مزخرفة مما توحي للناظر كأنها مظفورة لذلك أصطلح المعمار البغدادي حالياً على تسميته بالعقال لكونه مجدول مثل العقال .

ان نص الكتابة الموجود على هذا الشريط قد تهدم وتساقط معظمه لكن معالم وبقايا بعض الكلمات والحروف لا تزال موجودة تدل على وجود تلك الكتابة ونوع الخط ولم تذكر المصادر القديمة ولا الحديثة نص الكتابة المذكورة ،ولكن المرحوم عباس العزاوي فقط ذكر أنه شاهد بين بقايا الكتابة أرقاماً تشير الى سنة تجديد المئذنة مع إسم (عطا ملك) الذي جددها[٥٩] وأستخدام الأرقام مع الكتابة هذا أمراً يبعث على الاستغراب ولم يكن مألوفاً

بل ولم يستخدم قط في تلك الفترة ، وربما شاهد بقايا حروف بالخط الكوفي فظنه ضعيف الاحتمال لأن الغالب والمعروف إلى اليوم أن مثل هذا الشريط الكتابي يتضمن آيات قرآنية كريمة فقط .

لقد بذلت جهوداً كبيرة من أجل الوقوف على نص الكتابة الموجودة على هذه المئذنة ومعرفة فحواها ، وبحثت في المصادر وكتب الرحالة والمستشرقين عسى أن أجد شيئاً عنها أو حتى صورتها قبل زيادة تشوهها وبعد حصولي من دائرة الآثار على بعض الصور القديمة للمئذنة ومقارنة ما فيها من بقايا الكتابة مع ما هو موجود فعلاً إلى الآن توصلت إلى قراءة بعض الكلمات وتعرفت على شكل الحروف ونوع الخط الذي كتبت به مما ساعدني على الاهتداء إلى عبارة ((البسملة)) الموجودة فيها .

لقد كان النص الموجود على هذه المئذنة مكتوباً بالخط الكوفي وبحروف بارزة فوق أرضية مملوءة بما يشبه أوراد أو نجوم رباعية الرؤوس تملأ جميع الفراغات بين الحروف بشكل يشبه الشبكة تقريباً وهو أمر سبق أن شاهدناه في كتابات المباني من العصر العباسي كما في المدرسة ألمستنصرية مثلاً. أما نوع الخط فهو الخط الكوفي الذي يمتاز بامتداد بدايات الحروف ونهايتها امتداداً متناسقاً يغلب عليه التعانق والتشابك مع وجود زيادات زخرفية بين الحروف تملأ الفراغات وتمتاز الحروف بالتناسق والتوازن فيما بينها ، وهذا بدون شك أكسبها مظهراً زخرفيً وطابعاً فنياً جمالياً(٦٠).

صيانة المئذنة:

أصبحت مئذنة جامع الخلفاء في مطلع القرن العشرين في حالة يرثى لها من الإهمال والتلف والتشويه في البناء والزخارف، فقد تهدمت قاعدتها نتيجة بناء جدران حديثة ملاصقة لها مما أدى إلى ضياع شكلها الأصلي وتلف مقرنصاتها وزخارفها، كما تساقطت القشرة الخارجية لبدن المئذنة وتلفت أجزاء من زخارفها وكذلك أصيبت مقرنصات الشرفة العليا للمئذنة بأضرار بالغة .

ورغم أن مئذنة جامع الخلفاء قد بنيت بالآجر والجص وهي المادة المتوفرة والمفضلة في العمارة البغدادية والصالحة في بناء المآذن وعمل الزخارف ، إلا أنها تعرضت للتلف نتيجة العوامل الجوية والرطوبة والمياه الجوفية. ولهذا السبب قامت دائرة الآثار بترميمها بصورة مؤقتة أولا بدأت منذ سنة ١٩٣٧ م للمحافظة على ما تبقى من المئذنة وزخارفها مع الأخذ بنظر الاعتبار إزالة جميع الأبنية المستحدثة الملتصقة بها . وبعد ذلك وضعت دراسة لصيانة وترميم هذه المئذنة على أسس علمية وعلى مراحل استغرقت عدة سنوات وانتهت في سنة ١٩٦٠م على أن أعمال الصيانة والترميم استمرت لتدارك ما يصيب البناء من تصدع أو رطوبة أو تلف الزخارف ومتابعة ذلك على الدوام .

بدأ العمل أولاً باستظهار البناء الأصلي للمئذنة لاسيما قاعدتها التي أصبحت غائرة داخل الأرض إلى مسافة كبيرة لذلك تم الاكتفاء باستظهار الجزء الذي يحمل الزخارف والاجتهاد بجعل القاعدة مضلعة وليست دائرية كما هو الحال في بدن المئذنة، ووجدت الشرفة السفلى للمئذنة وجعلت مضلعة كذلك وجددت المقرنصات بأسفلها على نحو ما هو متبقي منها . ونتيجةً لهذه الأعمال أصبحت قاعدة المئذنة محاطة بخندق يسمح برؤية ما تم استظهاره منها ومشاهدة زخارفها الأصلية . بينما تمت صيانة مقرنصات الشرفة العليا للمئذنة مع الاحتفاظ بالأجزاء المتبقية القديمة منها وكذلك الكتابة فأنها تمت صيانة ما بقي من حرفها فقط.

والجدير بالذكر أن أعمال الصيانة والترميم في مئذنة جامع الخلفاء قد أعادت لها شكلها وعناصرها وزخارفها الأصلية القديمة وجعلتها أكثر قوة وصموداً لما أتسمت به من دقة وإتقان في العمل والاستناد إلى الأسس العلمية الصحيحة في صيانة الأبنية القديمة، وهذا مايؤدي إلى إبراز التراث العماري العراقي وما أسهم به من إبداع وابتكار، وتأثيره في العمارة العربية الإسلامية عموماً .

المصادر والمراجع

القرآن الكريم

ابن الأثير ، ابو الحسن علي بن محمد الجزري،ت٦٣٠هـ .

١-((الكامل في التاريخ)) ليدن،١٨٦٢-١٨٧٦م.

ابن بطوطة ،أبو عبدالله محمد بن عبدالله اللواتي المغربي ،ت٧٧٩هـ .

٢-((تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار))المعروف برحلة أبن بطوطة ، بيروت،١٩٦٨ .ابن جبير ، أبؤ الحسن محمد بن أحمد بن جبير الكناني الأندلسي ، ت٦١٤ هـ .

٣-((تذكرة الأخبارعن اتفاقات الأسفار)) المعروف برحلة أبن جبير، بيروت، ١٩٨٦

ابن الجوزي، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي، ٥٩٧هـ.

٤-((المنتظم في تاريخ الملوك والأمم)) الهند ، حيدر أباد، ط١، ١٣٥٧هـ.

ابن الساعي ، أبو طالب علي بن أنجب ،ت٦٧٤ هـ .

٥-((جهات الأئمة الخلفاء من الحرائر والإماء)) تحقيق د.مصطفى جواد ، مصر، دار المعارف.ابن عذاري المراكشي ،أبو عبدالله محمد ، توفي في نهاية القرن السابع الهجري.

٦-((البيان المغرب في أخبار المغرب))،بيروت، ١٩٥٠ . ابن العماد الحنبلي ، أبو الفلاح عبد الحي ،ت ١٠٨٩هـ .

٧-((شذرات الذهب في أخبار من ذهب)) مصر ، ١٩٣٧ .ابن الفوطي ،كمال الدين أبو الفضل عبد الرزاق البغدادي ، ت٧٢٣هـ .

٨-((الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة)) وهو كتاب منسوب خطأ للمؤلف المذكور ، تحقيق د. مصطفى جواد ، بغداد ، ١٣٥١هـ .ابن الوردي، الشيخ زين الدين عمر بن الوردي.

٩-((تاريخ أبن الوردي))، مصر ، ١٨٧٧ .أبو شامة، عبد الرحمن بن أسماعيل، ت٦٦٥ هـ .

١٠ –((الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية)) تحقيق محمد حلمي محمد أحمد ، مصر ، ١٣٨٧ هـ .الإدريسي ، أبو عبدالله المشهور بالشريف الأدريسي ، ت٥٦٠ هـ .

١١-((وصف المسجد الجامع بقرطبة)) من كتابه ((نزهة المشتاق في اختراق الآفاق)) نشرة الفريد ديسيه لامار ،الجزائر ، ١٩٤٩.

الأعظمي ، خالد خليل حمودي .

١٢-((الزخارف الجدارية في آثار بغداد)) دار الرشيد للنشر ، بيروت ، ١٩٨٠.

الآلوسي ، محمود شكري ، ت١٩٢٤ .

١٣-((تاريخ مساجد بغداد وآثارها)) تهذيب محمد بهجة الأثري ، بغداد ، ١٣٦٤هـ.الأيوبي ، محمد بن تقي الدين عمر بن شاهنشاه ، ت٦١٧هـ .
١٤-((مضمار الحقائق وسر الخلائق)) ، تحقيق محمد حسن حبش ، دار الهنا ، القاهرة . بكنغهام ، جيمس .
١٥-((رحلتي إلى العراق في سنة ١٨١٦))ترجمة سليم طه التكريتي ، بغداد ، ١٩٦٨ .
١٦-((رحلة بنكغهام _ وصف بغداد)) ترجمة محمد علي حلاوي ، مجلة سومر ، بغداد ، المجلد ١٠ ، ١٩٥٤ .الجنابي ، د. كاظم إبراهيم.
١٧-((المآذن نشأتها وعمرانها)) مجلة كلية الشريعة ، جامعة بغداد ، عدد١ ، ١٩٦٥ .
١٨-((مئذنة سوق الغزل)) بغداد ،دار الجمهورية ، ١٩٦٦ . جواد ، أ.د .مصطفى.
١٩-((عمارات القرن السادس الضخمة في الجانب الشرقي من بغداد)) مجلة سومر، بغداد ، م٢ ،ج١ ،١٩٦٤.
٢٠-((منازه نظر في مباحث سومر))مجلة سومر ،بغداد ، م٢٤، ١٩٦٨. جواد ، د. مصطفى ـ سوسة ، د. أحمد
٢١-((دليل خارطة بغداد المفصل)) بغداد ، مطبعة المجمع العلمي العراقي ، ١٩٥٨.الجويني ، علاء الدين
٢٢-((تاريخ جهانكشاي)) تحقيق محمد عبد الوهاب قزويني ، ليدن ، ١٩١١. الحديثي، عطا
٢٣-((مئذنة الكفل)) ، مجلة سومر ، م٢٨ ، ١٩٧٢ .حسن ،د. زكي محمد
٢٤-((الفنون الإيرانية في العصر الإسلامي)) القاهرة ،ط٢ ،١٩٤٦ .الحميري ، أبو عبدالله محمد بن عبدالله بن عبد المنعم ،القرن التاسع الهجري
٢٥-((صفة جزيرة الأندلس))من كتاب ((الروض المعطار)) نشرة ليفي بروفنسال، القاهرة ،١٩٣٧.الخطيب البغدادي ،أبو بكر أحمد بن علي ، ت٤٦٣ هـ .
٢٦-((تاريخ بغداد أو مدينة السلام)) ،القاهرة ١٩١٣ . ديوه جي ، سعيد
٢٧-((جوامع الموصل)) بغداد ، ١٩٣٦ . رشيد الدين ، فضل الله بن عماد الدولة الهمداني ، ت٧١٨هـ .
٢٨-((جامع التواريخ))ترجمة محمد صادق نشأت ، محمد موسى هنداوي ، فؤاد الصياد ، مصر ، دار أحياء الكتب العربية. سبط أبن الجوزي ، شمس الدين أبو المظفر يوسف بن قزاوغلي التركي ، ت٦٥٤ هـ .
٢٩-((مرآة الزمان في تاريخ الأعيان)) الهند، حيدر أباد، ط١، ١٣٧٠هـ. السمهودي، نور الدين علي بن عبد الله بن العباس أحمد الحسيني الشافعي ، ت٩١١ هـ.

٣٠-((وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى)) مصر، مطبعة الأداب والمؤيد،١٩٠٨. سركيس، يعقوب
٣١-((مباحث عراقية)) قسم ١ ، بغداد ١٨٤٨ .شافعي د. فريد
٣٢-((العمارة العربية في مصر الأسلامية))عصر الولادة، مصر، ١٩٧٠.العزاوي، المحامي عباس
٣٣-((تاريخ العراق بين إحتلالين)) بغداد ، شركة التجارة والطباعة المحدودة فكري، د. أحمد
٣٤-((مساجد القاهرة ومدارسها)) ـ المدخل ،العصر الفاطمي ، مصر دار المعارف ، ١٩٦١ ،١٩٦٥ .القزاز ،السيدة وداد
٣٥-((المنارة المظفرية)) مجلة سومر ، بغداد ، م١٦ ، ١٩٦٠ .القزويني، حمد الله المستوفي ابن أبي بكر بن أحمد بن نصر ، ت٧٥٠ هـ .
٣٦-((نزهة القلوب)) باللغة الفارسية، لندن ، ١٩٢٨ .الكتبي ، محمد بن شاكر بن أحمد ، ت ٧٦٤ هـ .
٣٧-((فوات الوفيات)) تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، مصر ،١٩٥١.كونل ، آرنست
٣٨-((الفن الإسلامي)) ترجمة د. أحمد موسى ، بيروت ، ١٩٦٦.نيبور ، كارستن
٣٩-((رحلة نيبور إلى العراق في القرن الثامن عشر)) ترجمة محمود حسين الأمين، بغداد ١٩٦٥ .ياقوت الحموي ، أبو عبدالله الحموي الرومي البغدادي ، ت٦٢٦هـ .
٤٠-((معجم البلدان))مراجعة محمد أمين الخانجي ، مصر ، ١٩٠٦ .
41-Le Gent,Beyline((Promeit Samar)),Paris,1907.
42-Hammed Alla Mustawfi((Nuzhat Al-Qulub))Translated by Le Strange, London, 1919.
43-Herzfeld.E((Sanctuary of Dul-Kifl)) ARS ISLAMICA, 1942,Vol.IX .
44-Massig non, L.((Mission en Mesopotamie,1907-1908)) Le Caire,1912.
45-Niebuhr,C.((Voyage en Arabie)) Amsterdam,1776.
46-Pope,A.U.((A survey of persian Art)) Oxford University Press, London and New york
7-Teixeira, P. ((The Travels of Petro Teixeira)) London, 1902.

الهوامش

(١) ياقوت الحموي: معجم البلدان ، مدة التاج، ج٢، ص٣٤٨-٣٥٠. أبن الساعي: جهات الأئمة الخلفاء، ص٧١-٧٨ .

(٢) الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ،ج١ ،ص١٠٩ .

(٣) وردت هذه التسميات المختلفة في المصادر التالية: الخطيب البغدادي : المصدر السابق ، ج١، ص١٠٩ ابن الأثير : الكامل في التاريخ ،ج١٠ ،ص١٠٤، رحلة بن جبير ، ص١٨٣. رحلة ابن بطوطة ص٢١٩، ياقوت الحموي : معجم البلدان ،ج٣ ص٢٦٤ . سبط ابن جوزي: مناقب بغداد ، ص٢١ ، رشيد الدين : جامع التواريخ ، م٢ ،ج١ ص٢٩٣ . ابن الفوطي : الحوادث الجامعة ،١٨ ، ١٣٩، ٢٥٠، ٣٠٤، ٣٢٢، ٣٣٠، ٣٧، ٤٠٨، ٤٢٦، ٤٤٧، ٤٩٦.

Teixira:The Travels .p.39.

Niebuhr:Voyage en Arabia,vol.2,p.241.

Massignon :Mission en Mesopotamie 1907-1908,Vol.2,p.41

(٤) أبن الأثير : الكامل في التاريخ،حوادث سنة٤٧٩هـ .

(٥) أبن الفوطي : المصدر السابق ص١٠٣ .

(٦) رحلة نيبور إلى العراق،ترجمة محمود حسين الأمين ص ٣٢ .

Niebuhr.lbid.p.241

(٧) وهو أبو المظفر علاء الدين عطاء ملك بن شمس الدين محمد بن بهاء الدين محمد الجويني كان أخوه وزيراً في البلاط المغولي ،وقد ولد في سنة ٦٢٣هـ (١٢٢٦م) وأصبح من خواص هولاكو وصحبه في حملاته وفي سنة ٦٦١هـ (١٢٦٣م) فوضه هولاكو حكم العراق فقام ببعض الإصلاحات العمرانية والإحسان إلى العلماء والفضلاء وكانت له خبرة في الأمور الإدارية ورفق بالرعية. وفي عهد أرغون بن هولاكو توفي علاء الدين في سنة ٦٨١هـ(١٢٨٢م) (أنظر عنه- تاريخ أبن الوردي ص٢٢٩. أبن العماد: الحنبلي شذرات الذهب ج٥ص٣٨٢. علاء الدين الجويني: تاريخ جهانشكاي ج١المقدمة ص ي أ-م ج، الكتبي: فوات الوفيات ج٢ ص٧٥ .

(٨) ابن الفوطي :المصدر السابق ص٣٧١ .

(٩) ابن الفوطي: المصدر السابق ص٤٠٨، أبن الأثير: المصدر السابق ج١٠ ص١٠٤ .

(١٠) ابن الفوطي : المصدر السابق ٣٣٠. رشيد الدين :المصدر السابق م٢ ج١ ص٢٩٣ .

(١١) ابن الفوطي : المصدر السابق ٣٣٣. رشيد الدين : المصدر السابق م٢ ج١ ص٢٩٥ .
(١٢) جامع الرصافة بناه المهدي قبل توليه الخلافة العباسية في محلة الرصافة بالجانب الشرقي من بغداد . أما جامع السلطان فهو منسوب للسلطان السلجوقي ألب أرسلان الذي شرع في بناءه في سنة ٤٨٥هـ(١٠٩٢م) ولم تتم عمارته ألا في سنة ٥٢٤هـ(١١٣٠م) وكان موضعه في محلة المخرم بالجانب الشرقي أيضاً . وهذان المسجدان فقدت معالمهما ولا أثر لهما اليوم(د.مصطفى جواد . د. أحمد سوسة: دليل خارطة بغداد المفصل ص١٥٢-١٣٥)
(١٣) رحلة أبن بطوطة ص٢١٩.
(١٤) يعقوب سركيس : مباحث عراقية ، القسم الأول ص١٤٥.
Teixeira : The Travels .p.39
(١٥) رحلة نيبور ، ترجمة محمود الأمين ص٣٢ .
Niebuhr :Ibid.Vol.2,24
(١٦) الآلوسي :تاريخ مساجد بغداد وآثارها،ص٣٩ . يعقوب سركيس :المصدر السابق ص١٤٦ . عباس العزاوي : جامع الخلفاء ، مجلة سومر (العراق) م٢٢(١٩٦٦)ص٢٧ .
(١٧) عباس العزاوي : المصدر السابق ص٣٢ .
(١٨) ابن الأثير : المصدر السابق ،حوادث السنة ٤٧٩ هـ .
(١٩) ابن الفوطي : المصدر السابق ص٣٣٠ رشيد الدين : المصدر السابق م٢ ج١ ص٢٩٣ .
(٢٠) ابن الفوطي : المصدر السابق ص٣٣٣ . رشيد الدين : المصدر السابق م٢ ج١ ص٢٩٥ .
(٢١) ابن الفوطي : المصدر السابق ص٣٧١ .
(٢٢) ابن الفوطي : المصدر السابق ص٤٠٨ . ابن الأثير : المصدر السابق ج١٠ ص١٠٤
(٢٣) يعقوب سركيس : المصدر السابق ص١٤٥ . عباس العزاوي : المصدر السابق ص٢٥ .
(٢٤) رحلة نيبور إلى العراق ص٣٢ .
(٢٥) جيمس بكنغهام : رحلتي إلى العراق سنة ١٨١٦ ، ترجمة سليم طه التكريتي ج١ ص١٩٣.
(٢٦) جيمس بكنغهام : المصدر السابق ص١٩٣ .
(٢٧) يعقوب سركيس : المصدر السابق قسم ١ ص١٣٢ . ومما ذكر حول المئذنة في هذا المصدر نقلاً عن جريدة العرب أنه لما أحتل الإنكليز بغداد بعد الحرب

العالمية الأولى ذهب مهندسوهم لرؤية هذه المئذنة فخافوا سقوطها وأحدث أضراراً بما يجاورها فعزموا على هدمها ، فذهب صاحب الجريدة المذكورة الى الحاكم البريطاني وهو السير برسي كوكس لأقناعه بالعدول عن فكرته بهدم المئذنة فلم يقتنع مما حعله يسارع الى المرحوم العلامة محمود شكري الآلوسي ليذهبا معاً الى الحاكم البريطاني ويبذلا الجهود من أجل المحافظة على هذه المئذنة فحققت تلك المساعي النتيجة المطلوبة وعدل الحاكم عن هدم المئذنة . وبعد سنتين (أي في سنة ١٩١٩م) كلف مهندس البلدية وهو مسيو شافانيس الفرنسي الجنسية بالأشراف على أعمال تستهدف تقوية قاعدة المئذنة فأنجز العمل المذكور . (أنظر عن ذلك المصدر نفسه ص ١٣٢).

(٢٨) د. كاظم الجنابي : مئذنة سوق الغزل ، قسم ٥ (الصيانة) ، وهامش رقم ١٤.

(٢٩) رحلة أبن بطوطة : ص٢١٩.

(٣٠) رحلة نيبور إلى العراق ص٣٢ . Niebuhr: Ibid. VoI.2,P.241.

(٣١) أبن الفوطي : المصدر السابق ص١٠٣ .

(٣٢) عباس العزاوي : المصدر السابق ص٢٧ . يعقوب سركيس : المصدر السابق قسم ١ ص١٤٦ .

(٣٣) ابن الأثير : المصدر السابق ج١٠ ص١٠٤ . ابن الفوطي المصدر السابق ص٤٠٨ .

(٣٤) د. كاظم الجنابي : المصدر السابق ، قسم (٢) الجانب المعماري .

(٣٥) رحلة بكنغهام _ وصف بغداد ، ترجمة محمد علي حلاوي ، مجلة سومر (العراق) م١٠(١٩٥٤)ص٢٦٧ هامش رقم ٤. ألا أن المرحوم د. كاظم الجنابي ذكر أن ارتفاعها (٣٣متراً) (المصدر السابق قسم ٣ تكوين المئذنة وموقعها من مسجد دار الخلافة). وربما سبب هذا الأختلاف راجع إلى تغير مستوى سطح الأرض المجاورة للمئذنة بالنسبة لما كان عليه سابقاً لاسيما بعد فتح الشارع العام المجاور وكثرة الأصلاحات وأعمال الترميم والصيانة التي أجريت على هذه المئذنة وقاعدتها بالذات.

(٣٦) د.كاظم الجنابي : المآذن ، نشأتها وعمرانها في الأقطار الأسلامية ، مجلة كلية الشريعة (جامعة بغداد /العراق)العدد الأول/١٩٥٦ ص١٠١.

(٣٧) السمهودي : وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى ج١ ص٣٧٥.

(٣٨) أحمد فكري : مساجد القاهرة ومدارسها – المدخل ص٢٧٦ .

(٣٩) د. كاظم الجنابي : المصدر السابق ص١٠٣ .

(٤٠) د. أحمد فكري : المصدر السابق ص ٢٧٦ .

(٤١) د. كاظم الجنابي : المصدر السابق ص١٠٣-١٠٤ .

(٤٢) السمهودي : المصدر السابق ص٣٧٥ .

(٤٣) د.أحمد فكري : المصدر السابق ص٢٧٦ . د. كاظم الجنابي : المصدر السابق ص١٠٢ .
(٤٤) د.فريد شافعي : العمارة العربية في مصر الإسلامية م (عصر الولاة)ص٦٣٥-٦٤٩ .
(٤٥) د. كاظم الجنابي : المصدر السابق ص١١٠ .
(٤٦) أن كلمة الشرفة المستخدمة في المآذن أصبحت شائعة الاستعمال رغم أن معناها اللغوي غير دقيق إذ هي تعني في اللغة الزينة العمارية في أعلى البنيان والأسوار وتسمى بالأنكليزية (battlements). وهناك كلمة عربية الأصل هي "الروشن" تدل على الجزء البارز من البناء بشكل متصل معه ومستند عليه ولكنها غير معروفة وغير شائعة الاستعمال من قبل الباحثين (أنظر ما كتبه عن ذلك د.مصطفى جواد:منارة نظر في مباحث سومر ،مجلة سومر ٢٤ (١٩٦٨)ص٢٢٢ -٢٢٤).
(٤٧) د. أحمد فكري : مساجد القاهرة ومدارسها ج١(العصر الفاطمي) ص١٦٧-١٧٠ .
(٤٨) سبط أبن الجوزي : مرآة الزمان م٨ قسم٢ ص٦٣٧ . د. مصطفى جواد : عمارات القرن السادس الضخمة في الجانب الشرقي من بغداد ، مجلة سومر م٢ (١٩٦٤) ج١ ص٦٥-٧٢ .
د. مصطفى جواد وأحمد سوسة : دليل خارطة بغداد المفصل ١١٨-١٨٩ .
الأيوبي : مضمار الحقائق وسر الخلائق، تحقيق حسن حبش ، القاهرة ، ص١٧٨-١٧٩.
(49) Le Genl. Beyline:Promeit Samar (Paris-1907) P.34.
(٥٠) كونل : الفن الإسلامي ، ترجمة أحمد موسى ص٦٦-٦٧ . د.زكي محمد حسن : الفنون الإيرانية في العصر الإسلامي ص٥٥-٥٦ .
(51) Pope:A Survey of Persian Art,Vol.4, Fig.369-A,B.
وأنظر أيضاً : د. زكي محمد حسن : المصدر السابق شكل (١٠).
(٥٢) عطا الحديثي : مئذنة الكفل ، مجلة سومر(العراق) م٢٨ (١٩٧٢)ص١٢٣-١٢٦.
(53) Hamed Alla Mustawfi: Nuzhat Al-Qulub, Translated by Strange(London-1919)P.39.
(54) Herzfeld: Sanctuary of Dul-Kifl,in Ars Islamica, Vol.1X(1942)P.29.
(٥٥) الأدريسي : وصف المسجد الجامع بقرطبة ، من كتاب نزهة المشتاق في أختراق الأفاق ، نشرة الفريد ديسيه لامار، الجزائر (١٩٤٩) ص١١،١٠.

أبن عذاري المراكشي : البيان المغرب في أخبار المغرب ج٢ ص٣٤٤.
الحميري : صفة جزيرة الأندلس، منتخب من كتاب الروض المعطار في خبر الأقطار ، نشرة ليفي بروفنسال ص١٥٥.
(٥٦) سعيد الديوه جي : جوامع الموصل ص٤٢.
(٥٧) أنظر : أبن الجوزي : النتظم ج١٠ ص٢٤٩. أبو شامة : الروضتين في أخبار الدولتين ج١ ص٩.
(٥٨) وداد القزاز: المنارة المظفرية، مجلة سومر (العراق) م١٦ (١٩٦٠) ص١٢٧-١٢٨ .
(٥٩) عباس العزواي : المصدر السابق ص٢٦ .
(٦٠) الأعظمي :الزخارف الجدارية في آثار بغداد ،ص٩٠-٩٤.

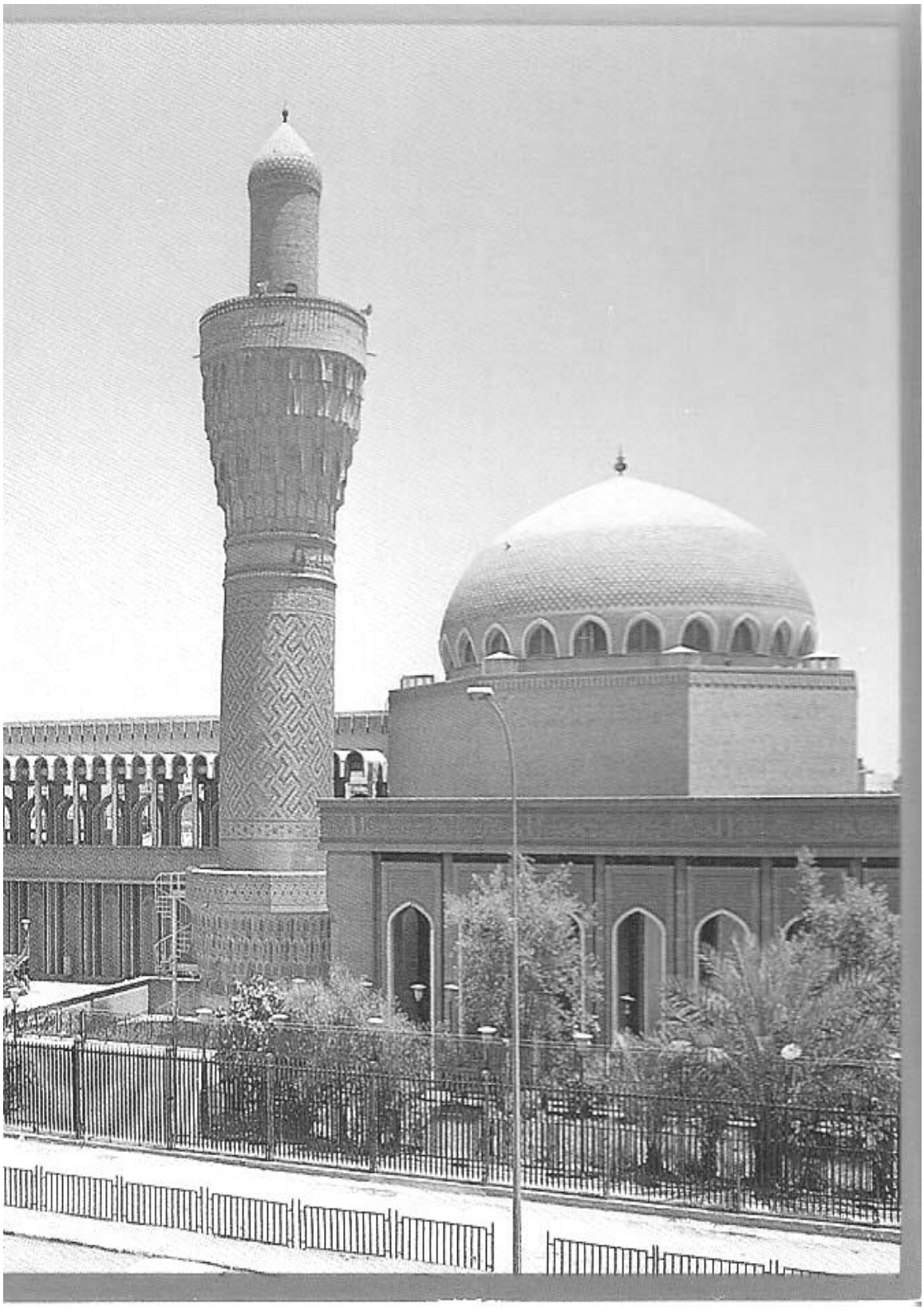

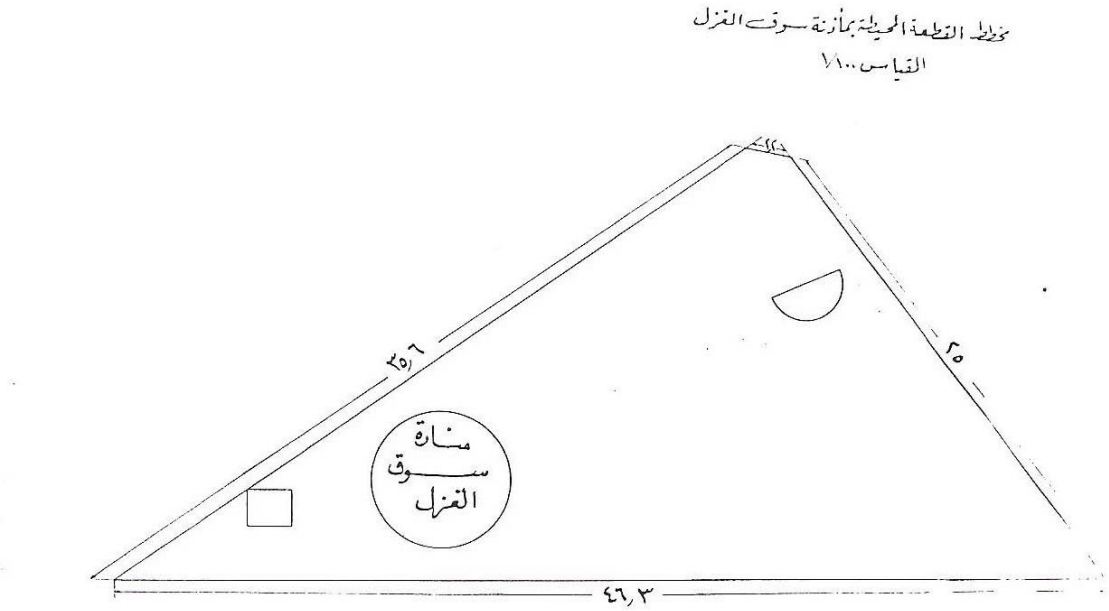

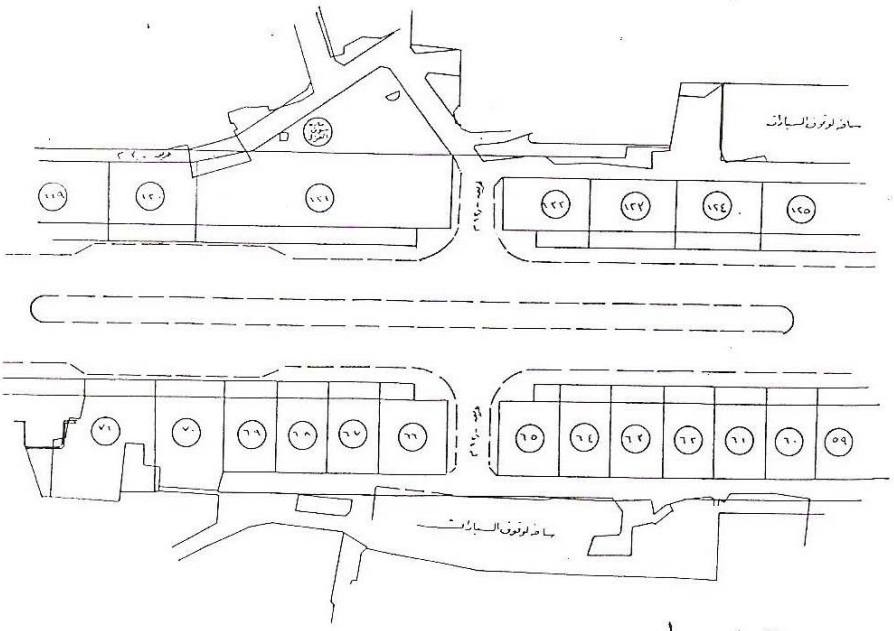

المقياس $\frac{1}{500}$

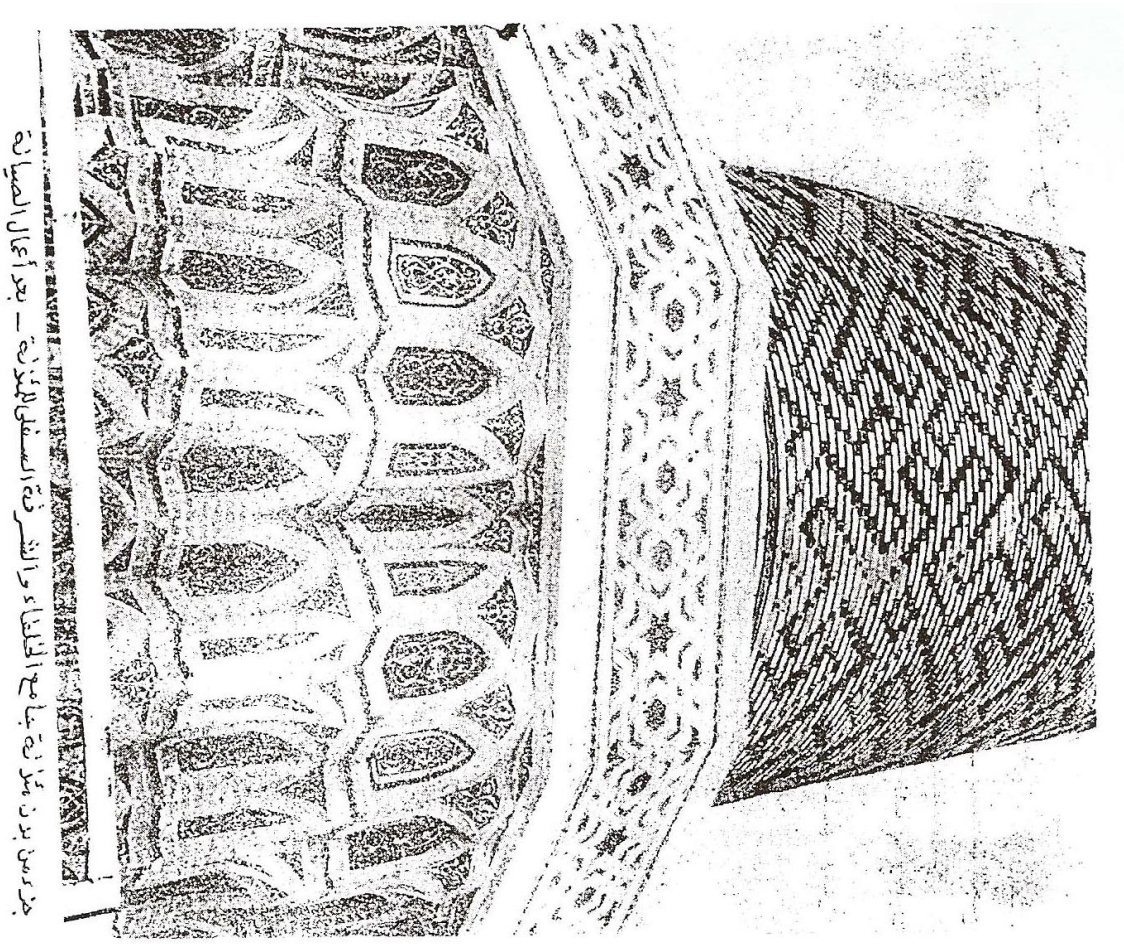

جزء من بدن مئذنة جامع الخلفاء في الرقة السفلى للمئذنة – بعد أعمال الصيانة

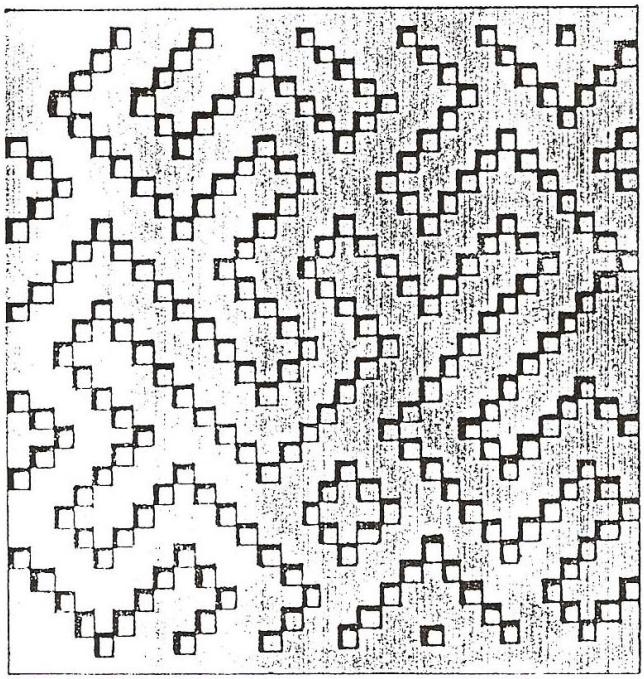

زخارف حصيرية من بدن المئذنة

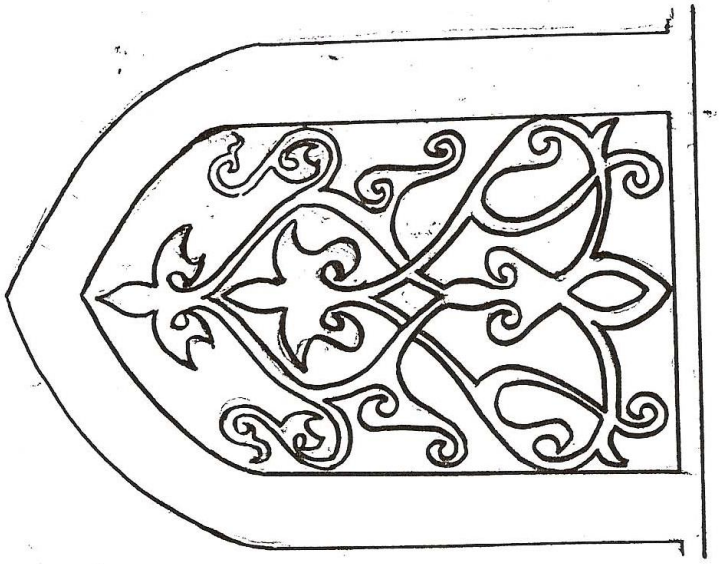

زخارف من مئذنة جامع الخلفاء
(مئذنة جامع سوق الغزل)

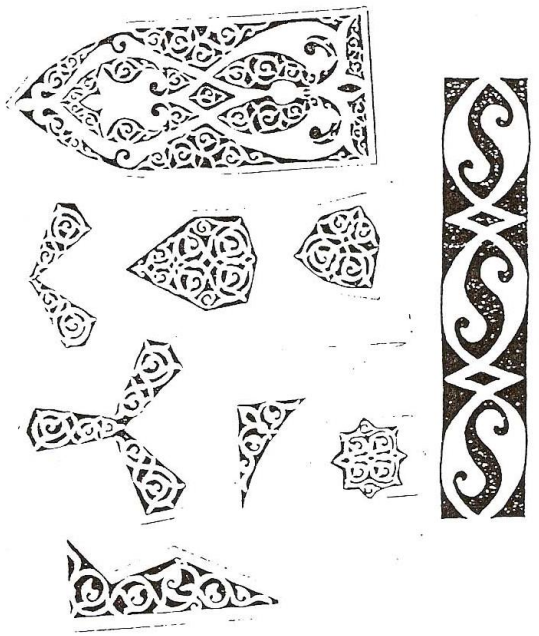

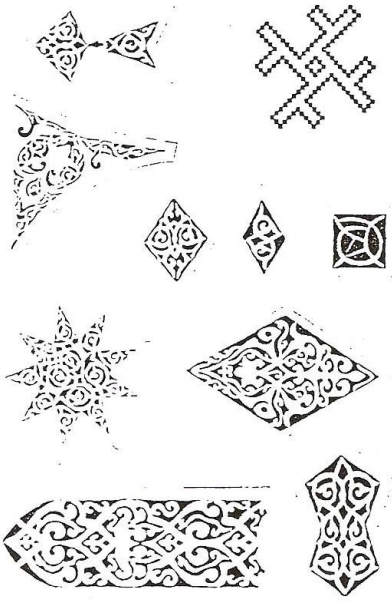

زخارف من مئذنة جامع سوق الغزل
(عن الدكتور كوكام الجنابي - مئذنة سوق الغزل)

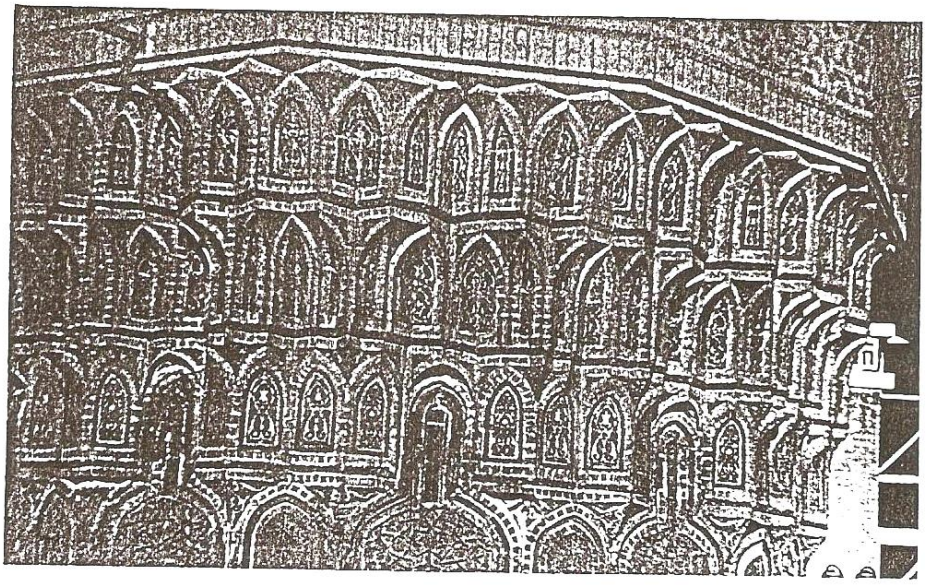

المقرنصات المجددة في الشرفة السفلى لمئذنة جامع الخلفاء
(مئذنة سوق الغزل)

بسم الله الرحمن الرحيم
عماركم الدائم

أجزاء من كتابة مئذنة سوق الغزل (جامع الخلفاء)